تدمر.. صفحات من التاريخ في الوجدان

عاصمة التجارة العالمية والثقافية واستقطبت كل الحضارات وحافظت على موروثها الأصيل

كانت مهمة الكهنة مراقبة حركة النجوم والسماء بالصعود عبر درجتين دائريتين بما يناسب الأسلوب العمراني الشرقي القديم

| هيثم يحيى محمد

تقع تدمر في وسط البادية السورية. وهي أقدم وجود بشري يعود إلى العصر الحجري القديم حيث وجدت جمجمة عمرها ٤٥٠٠٠٠ سنة في منطقة الكوم شمال شرقي تدمر، كما وجدت بقايا مستحاثات حيوانية وأدوات صوانية وفخارية في موقع جرف العجلة وكهف الدوارة شمالي تدمر تعود للعصر الحجري الحديث.

ويمكن القول: إن نشوء تدمر مدين لنبع أفقا فهو هبة السماء، وتدمر تعني بالآرامية(تدمرتو) الأعجوبة، أو الجميلة(تدمرتا) وباللاتينية (باليرا بلاد التمور).

وأول ذكر وجد في منطقة كباد وكيا (كولتبه) يعود للقرن (٢٠) قبل الميلاد. والذكر الثاني في أرشيف ماري على الفرات يعود إلى القرن (١٨) قبل الميلاد. والذكر الثالث في مسكنة (إيمار) يعود إلى القرن(١٤) قبل الميلاد. والذكر الرابع في حوليات الملك الآشوري تغلات فلاصر في القرن (١١) قبل الميلاد.

تدمر من قرية تجارية إلى قوة عظيمة وعالمية

ويقول الباحث في التاريخ والمتخصص في آثار تدمر جميل القيم الذي التقيناه في طرطوس على هامش محاضرة ألقاها في مركز ثقافي طرطوس منذ بضعة أيام:

بعد سقوط البتراء وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية عام ١٠٦ م. في عهد الإمبراطور تراجان وتحول طريق التجارة العالمية نحو تدمر فقد أصبحت عاصمة التجارة العالمية والثقافية، فهي مدينة كونية استقطبت كل الثقافات وتفاعلت معها وحافظت على موروثها الأصيل أثرت بشكل كبير وتأثرت، وشكلت نقطة توازن وسلم في العالم القديم بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية. فتدمر لها ميناء على الفرات دورا أوروبس (الصالحية) مدينة التعايش الديني حيث وجد كنيس وكنيسة والعديد من المعابد اليونانية والرومانية والتدمرية (بل وجاد).

والميناء الآخر(ميسان) على الخليج العربي مملكة خرقدونيا، وميناء فقط على نهر النيل، وميناء حلبيا زلبيا على الفرات، إضافة إلى العديد من المكاتب التجارية في بابل ودلمون وفي الكويت واليمن حيث وجدت كتابات العقلة وغيرها.

يقول الباحث العلامة محمد علي مادون في كتابه (تفاعلات حضارية على طريق الحرير). التدمريون كانوا ١- إما تجاراً ٢- أو للسلع والبضائع كانوا ناقلين. ٣- أو حماة وحراساً للطرق وتأمين القوافل.

وهذا ما تثبته النقوش والكتابات، مثل الكتابة على الرواق الجنوبي للأغورا لمركب حنين بن حدودان

وقائد المركب ماركوس أولبيوس يعود إلى ١٥٨ ميلادي.

زار تدمر الإمبراطور هادريان١٢٩ ميلادي وكرمته قبيلة بني معزين في معبد بعل شمآين، وأعطى تدمر لقب تدمر الهدريانية حيث أعفى تدمر من الضرائب وأصبح لها حرية جباية أموالها.

وفي عام ١٣٧ ميلادي صدر القانون المالي الجمركي الذي نظم الحياة الاقتصادية وأصبحت الأغورا في تدمر تحتوي على مستودع البضائع الشرقية والغربية (الحرير من الصين والتوابل من الهند والصوف من كشمير واللازورد من أفغانستان واللؤلؤ من دلمون والبخور من شبوة وظفار في الجزيرة العربية والرخام من الأناضول...).

قمة الازدهار خلال عهد الأسرة السفيرية بين ١٩٣ حتى ٢٣٥ ميلادي حيث وصلت إلى قمة الازدهار الاقتصادي والثقافي، كما أعطيت تدمر لقب المعمرة الرومانية في عهد الإمبراطور كركلا عام ٢١٢.

في عام ٢٢٨ كانت تنتظر مفاجأة قطع الطريق من الفرس وتحول طريق الشرق والغرب إلى مسار الجنوب والشمال.

وصلت أسرة عربية يقودها أذينة عام ٢٦٠ حيث استطاع تحرير الإمبراطور فاليريان من الفرس وانتصر على سابور وطرده إلى ماوراء الفرات، وأعطته روما لقب ملك الملوك ومصلح الشرق. قتل أذينة في احتفال عام ٢٦٨ من ابن أخيه معن.

تولى الحكم زنوبيا الوصية على ابنها وهب اللات، استطاعت طرد الرومان إلى الأناضول حتى بيثينيا ومن مصر، وقامت بصك نقد وطني عليه صورة زنوبيا.

لكن أورليان استرد هيبة روما ٢٧٤ عندما حاصر تدمر ودمرها، فقد وقعت زنوبيا في الأسر في طريقها على الفرات للاستعانة بالفرس، ماتت أسيرة في روما.

تحولت تدمر إلى محطة عسكرية ستراتا ديقلوسيان في عهد ديقلوسيان (٢٨٤- ٣٠٥).

ويضيف القيّم في الفترة البيزنطية تحولت المعابد إلى كنائس، وأصاب تدمر زلزال كبير خرب أقساماً واسعة من مبانيها وأسوارها في عام ٤٣٤ميلادي. وفي عهد جوستنيان ٥٢٥- ٥٦٥ ميلادي أمر قائده (أرمينوس) بالذهاب إلى تدمر لترميم ما تهدم من أبنيتها وأسوارها، ويذكر أن القناة الفخارية في شارع الأعمدة تعود إلى عهد جوستنيان، على حين الحجرية تعود إلى القرن الأول الميلادي.

وفي الفترة الأموية أصبحت محطة للأمويين زمن هشام بن عبد الملك بين قصر الحير الشرقي والغربي، وأصبحت مزدهرة بدليل وجود سوق أموي غربي الترابيل، لكن في نهاية الدولة الأموية عام ٧٤٩ كانت تنتظر تدمير أسوارها من الخليفة مروان بن محمد.

وفي العصر العباسي الأول أهملت تدمر، وفي القرن (١٠) ميلادي أصابها زلزال كبير جعل الخراب فيها من جديد.

في عهد أتابكة دمشق تحولت إلى معبد بل ثم إلى حصن زمن يوسف بن فيروز وفي الفترة الأيوبية بنيت قلعة تدمر من أسد الدين شيركوه.

وفي فترة المماليك أهملت ولم تكن محطة من محطات الإنذار المبكر ضد المغول تمتد من الرحبة على الفرات حتى دمشق ومن ثم نحو القاهرة.

وفي الفترة العثمانية أهملت مع طي النسيان حتى قدوم أول بعثة استكشافية ١٧٥١ من داو كنز وروبرت وود، لكن أهم حدث تاريخي فك شفرة الكتابة التدمرية كان من الأب الفرنسي بار تملي والإنكليزي سويتون.

وفي عام ١٨٨٢ اكتشف الأمير الروسي أبماليك لازريف التعرفة المالية الجمركية وتم نقله إلى متحف الأرميتاج ١٩٠١ م بموافقة السلطات العثمانية، ويبلغ طوله ٤٨٠×١٧٥ متراً.

ويحتوي على أربعة حقول:

١- الجهة المشرعة: مجلس الشيوخ.

٢-التعرفة الجمركية: وتحتوي على السلع والبضائع ومكوسها (حمل حمار- حمل جمل-عربة).

٣- غرامة البيانات الجمركية الكاذبة.

٤- فض النزاعات.

-في فترة الانتداب الفرنسي أخلي معبد بل من السكان وتم نقلهم إلى مدينة جديدة كما تم اكتشاف الأغورا وترميم معبد بل والمدافن وغيرها من سيريغ وآمي وجان كانتينيو وجان ستاركي.

ويقول القيّم عن أهم الأوابد الأثرية:

معبد بل

بل رب رافدي أو بعل كنعاني أومردوخ لدى البابليين.

بني سنة ٣٢ ميلادي على أنقاض معبد يعود للفترة الهلنستية على أنقاض معبد ثالث يعود للألف الثاني.

أ- التوصيف المعماري:

يحقق خصائص المعبد السوري القديم:

١- الباحة رحيبة ٢٠٥×٢١٠

٢- النوافذ مستطيلة

٣- الجبهات المثلثية

٤-الحرم في الوسط

٥- المحاريب تخضع لقاعدة التوجه بعكس اليونان والرومان فيضعون آلهتهم في الوسط.

ب: يتم الدخول إلى صحن المعبد بوساطة درج عريض يؤدي إلى بوابة فخمة أمامها رواق ولها مداخل ثلاثة كانت تغلق بأبواب من البرونز المذهب، ولصحن المعبد مدخل آخر يمر منحدراً تحت أرض الرواق الغربي لتدخل منه الحيوانات المعدة للأضاحي.

وحول الصحن من جهاته الثلاث أروقة مزدوجة، أما الجهة الغربية فرواقها أعلى من الأروقة الأخرى ولكنه غير مزدوج.

التأثيرات الرومانية

نلاحظ التأثيرات الرومانية من خلال نمط تيجان الأعمدة الكورنثية في أروقة المعبد، وكذلك الأمر في نمط التيجان الأيونية في الجدار الجنوبي من الحرم.

٣- النحت الديني:

يتضح جلياً في أروقة الهيكل المركزي حيث تحمل سقوف الأروقة جسوراً كانت تحتوي على عدة لوحات.

في اللوحة الأولى: يظهر إله القمر(عجليبول) مرتدياً السروال والقميص ويقابله إله الفصول والمواسم بدليل وجود مذبح الفواكه (الصنوبر والتفاح والرمان).

في اللوحة الثانية الخلفية نجد عدة آلهة ترتدي زي المحاربين ونلاحظ الحصان الذي يرمز للخير والتنين الذي يرمز للشر، أو الشيطان، مشهد صراع الخير والشر.

في اللوحة الثالثة نجد مشهد الطواف الشهير الذي يبدو فيه تمثال الإله بل على جمل في قبة حمراء وفيه نساء محجبات، ويقاد هذا الطواف بكاهن من الدرجة الأولى ويميز من خلال القبعة الأسطوانية التي عُقد عليها ظفيرة من الغار وكان حليق الذقن متطهراً ونشاهد الثور الذي يضحى به.

اللوحة الرابعة: حيث يلاحظ الكهنة يحرقون البخور لتطهير المكان المقدس وطرد الأرواح الشريرة وهذا تقليد قديم ظهر في كل من الأوساط المسيحية والإسلامية لاحقاً.

نجد في الهيكل المركزي عدة نقوش فالبيضة ترمز للحياة والكرمة للخصب والزيتون للسلام.

٤- الطقوس الدينية

أ- الطهارة: حيث يدخل الشعب من البوابة الرئيسية لممارسة طقس الطهارة من البركة المقدسة.

بعد ذلك:

ب- يتم الطواف عدة أشواط حول الحرم، وهذا طقس شرقي قديم.

ج- الأضحية: حيث يضحى بالإبل والأغنام عند دخولها من الممر المخصص للأضاحي وتقديمها للمذبح.

د- الوليمة الدينية في غرفة المائدة: حيث تتم دعوة الأشخاص ذوي المراتب الرفيعة ويرأس الوليمة رئيس وليمة دينية وهو هنا الكاهن الأكبر لمعبد بل ويعرف باليونانية باسم (رب مرزحا)، والدخول لهذه الوليمة ببطاقات صغيرة من الفخار أو البرونز عليها صورة الرب أو رمزه واسم مقدم الوليمة ورموز شتى.

- التأثيرات البابلية

يتم الدخول للحرم فقط من كهنة مغتسلين ومتطهرين ويوجد على سطح الحرم أربعة أبراج، كانت مهمة الكهنة مراقبة حركة النجوم والسماء، ويتم الصعود عبر درجين دائريين، كما نلاحظ الشراريف المسننة(ميرلونات) وفي ذلك أسلوب عمراني شرقي قديم نجده في مباني الأنباط.

في المحراب الشمالي:

نجد النسر يرمز للإله بعل شمآين والنسر يرمز للقوة والسيطرة والحرية ونلاحظ أن النسر يقترب من السماء فكرة الاقتراب من السماء وأن إلهاً كبيراً يسيّر هذا الكون إضافة إلى تمثال الإله يرحبول (إله الشمس) والإله عجليبول (إله القمر).

فمعتقداتنا فلكية تأثرت بالكواكب والنجوم ونجد في بابل الإله زين وشماش = الشمس والقمر.

التمكّن من الرسم تصبح قواعد الخط العربي أسهل

سمير ظاظا لـ«الوطن»: دمشق وسورية هما الإلهام الروحي لأعمالي

| سوسن صيداوي

الرسم. سواء أكان بأسلوب الألوان، أم بأسلوب الأصابع، أم بالرسم عبر الكلمات، هو استطاع بكل الطرق أن يميّز نفسه فنانا مبدعا، مكرسا رسالته لتأصيل الإنسان، داعياً للتمسك بالموروثات الوطنية الراسخة مهما كانت الغربة مديدة السنين أو بعيدة المسافات.. إنه الفنان التشكيلي سمير ظاظا المقيم حالياً في مصر، مستقراً، ولكنّ قلبه وباله باقيان مع سوريته المعشوقة، معبراً عن حبه لها من خلال فنه برسوماته التشكيلية، ولوحاته المتنوعة الأسلوب التي أبدع فيها حتى عندما يقوم بالرسم المباشر – الحي – والمحدد التوقيت أثناء الندوات الثقافية، متابعاً كي يبدع نوعا غير معروف – وحتى في مصر – وهو رسم البورتريه عبر الكلمات التي استخدم فيها الخط الديواني، ومن خلال مشاركاته في المعارض الفردية والجماعية أثبت جدارته. للحديث أكثر عن أسلوب الفنان ظاظا ونشاطاته الفنية إليكم الحوار التالي:

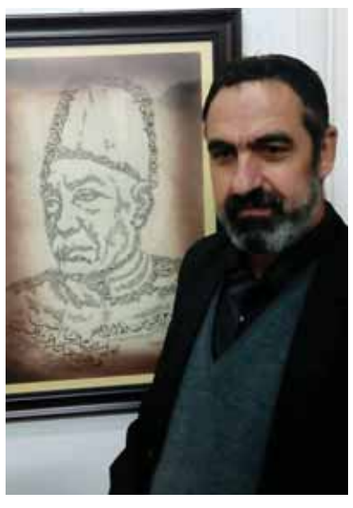

• البدايات.. هل كانت مع تعلّم قواعد الخط العربي أو مع الرسم والألوان؟... وأي من الاختصاصين أصعب على الفنان؟

في البداية تم اكتشاف الموهبة من الأهل ومدرسي مادة التربية الفنية في المدرسة، وكنت حينها بعمر ست سنوات. في تلك الأثناء بدأت بتعلّم قواعد الرسم لأنه هو المرحلة الأهم، بعدها انطلق مشواري في تعلّم قواعد الخط العربي، وبرأيي عند التمكن من الرسم بشكل جيد، يكون تعلّم قواعد الخط العربي أسهل وأسرع.

• حدثنا عن أسلوب الرسم بالألوان.. وأي لون منها تجد التعامل معه معقداً؟

الرسم بالألوان يحتاج إلى تأن كبير ودراسة عميقة، لأن استخدام الألوان ليس بالأمر الهيّن، والجانب المعقد هو من حيث تطبيق تدرجاتها -ذات الكم الهائل والمختلف- وبطريقة توظيفها. وبالنسبة لي أنا أعتبر أكثر الألوان صعوبة في تركيباته هو اللون الأخضر، حيث يوجد هذا اللون أحياناً بلوحة منظر طبيعي بأكثر من عشر درجات مختلفة عن بعضها.

• هل تتذكر ظروف أول عمل رسمته بالكلمات... ولمن خصصت أول بورتريه... حدثنا عن تلك التفاصيل إضافة إلى نوع الخط الذي تستخدمه عادة... وكم يستغرق العمل منك جهداً ووقتاً؟

أول تجربة رسم بالكلمات كانت لوحة تمثّل صورة القائد الخالد حافظ الأسد، وتم تصميم الصورة في عام١٩٨٦، في ذلك الوقت استغرق إنجاز العمل مني ما يقارب ستة أشهر. وهنا أحب أن أشير إلى أنه وبعد التجارب الكثيرة والعديدة بأسلوب الرسم بالكلمات، أصبح العمل يستغرق وقتا أقل، ويتراوح ما بين عشرة إلى عشرين يوما، وبالطبع هذه المدة تتفاوت ما بين درجات الصعوبة والتفاصيل المطروحة في العمل. وعن نوع الخط الذي استخدمه، أنا أستخدم الخط الديواني حصراً، لأنه مساعد بالرسم وهو من أجمل الخطوط انسيابية.

• لنبق هنا قليلاً، ولنتحدث عن القصائد الشعرية.

بأسلوب الرسم بالكلمات قمت برسم القصيدة الشعرية، هذا الرسم معقد ويحتاج إلى وقت وجهد، لأن القصيدة الشعرية تعتبر إلهاما كبيراً للفنان الذي يستطيع من خلال القصيدة الواحدة، أن يشكل العديد من الصور، وبالنتيجة كل صورة هي عبارة عن لوحة، يراها الفنان برؤيته الخاصة، وعبر زواياها العديدة، كي ينقل من خلالها روعة التعبير واللون. وبقي أن أضيف إن الرسم بالكلمات -وخصوصاً البورتريه- هو فن جديد، ويعرض للمرة الأولى في مصر، وقد لاقى استحسانا كبيراً لدى الجمهور لأنه مختلف عن النمط السائد في المعارض الفنية.

• ماذا عن تجربتك بأسلوب الرسم بالأصابع... إلى أي مدى تشعرك بالحرية وتمنحك المساحة في الإبداع.. وهل تكتفي باستخدام الأصابع كأدوات؟

طريقة الرسم بالأصابع تمنحني إحساسا رائعا في التعامل مع أرضية اللوحة، عبر تداخل ألوانها وتدرجاتها بشكل جميل. أما بالنسبة للشق الثاني من السؤال، في هذا الأسلوب من الرسم لا أكتفي باستخدام أصابعي، بل أستخدم أدوات مثل «مفك براغي أو أي أداة حادة، أو محارم ورقية». وبالطبع لكل أداة وظيفتها بإظهار مقطع معين من أقسام اللوحة.

• الرسم الحي أثناء الندوات الشعرية... فيه الكثير من التحدي وخاصة أنه عليك الإنجاز في وقت محدد.. ما رأيك؟

هذا صحيح إنه لشعور عظيم يدركه الفنان عندما يقدم فنا جديدا، وينقل من خلاله فكرة مبتكرة بالرسم المباشر أمام الجمهور، وباستخدام الأصابع من دون استعمال أدوات الرسم التقليدية، متمكنا من تنفيذ العمل بزمن قصير... وحول أول تجربة بالرسم الحي أمام الجمهور، كانت في عام١٩٩٦من خلال أمسية شعرية غنائية بعنوان: «نزار قباني شاعر الحب والياسمين»، حينها تم إنجاز لوحة كبيرة تضمنت ما قيل من شعر وغناء بالألوان التعبيرية الخاصة، وكانت أقسامها الخلفية الأساسية ألوان غروب الشمس ورسم البحر وتوزيع زهور الياسمين إضافة إلى رسم حورية البحر وصورة الشاعر الكبير نزار قباني، وبعد أن قوبلت هذه التجربة بالكثير من الترحيب والتشجيع، قمت بتكرارها على عدد من المسارح وبعناوين مختلفة.

• خلال إقامتك الحالية في مصر أقمت وشاركت في العديد من المعارض الجماعية والفردية.. حدثنا عن هذه المشاركات؟

نعم... لقد أقمت العديد من المعارض في القاهرة، وكان أهمها معرضي الفردي الثاني في دار الأوبرا المصرية، الذي جاء بعنوان: «عمالقة مصر بعيون سورية»، كان تضمن المعرض٧٢لوحة، صُممت ورُسمت جميعها بالكلمات، وجسدت بورتريه للعديد من الفنانين والمطربين القدامى إضافة للأدباء والشعراء، وكتبت في الصور عن حياة كل فنان وعن أعماله الفنية أو الغنائية أو الأدبية. لقد لاقت هذه الطريقة إعجاباً كبيراً من الزائرين، لكونها أسلوباً جديداً يرونه للمرة الأولى. هذا الأسلوب نفسه اتبعته أيضاً في معرضي الفردي الأول في «ساقية الصاوي للثقافة والفنون» حيث عُرض فيه٦٣عملاً. ويهمني أن أذكر أنني مشارك دوري في معرض صالون الربيع الثالث عشر، والرابع عشر الذي تقيمه ساقية الصاوي سنوياً. وأتابع... إنني شاركت وللمرة الثانية بمعرض الزعيم جمال عبد الناصر الذي تقيمه سنويا شبكة علم مصر الإخبارية بالتعاون مع مكتبة مصر العامة. وليس هذا فقط بل أيضاً كان لي شرف المشاركة باحتفالية مكتبة مصر العامة في عيد تأسيسها الثالث والعشرين، عبر تنفيذ رسم مباشر أمام الحضور من دون استخدام أدوات الرسم التقليدية. هذا إضافة لمشاركتي لعامين متتالين في ملتقى«هارموني الدولي» للفنون التشكيلية في القاهرة. أحب هنا أن أشدد أنني شاركت بكل تلك المحطات ممثلاً وطني الغالي سورية الحبيبة، كما حصلت على العديد من الجوائز التكريمية، من الجهات الرسمية في جمهورية مصر العربية الشقيقة.

• في الختام، دمشق العاصمة وسورية الوطن حاضرتان في أعمالك الفنية وبما تشارك به في مصر من معارض... ما تعقيبك؟

بالفعل دمشق الياسمين وسورية الحبيبة هما الإلهام الروحي لأعمالي الغنية المتنوعة، وعندما أتناول هذا الموضوع في لوحاتي، أشعر بالفخر والاعتزاز، لأنني من وطن هو مهد الحضارات بتاريخه العريق. وأحب أن أضيف هنا إنني اليوم وخلال إقامتي في مصر الشقيقة، كنت قد نقلت فكرة الرسم بالكلمات والرسم بالأصابع من خلال العديد من المعارض وورشات الرسم المباشر أمام الجمهور في العديد من المناسبات، ولاقت هذه الأفكار كل تقدير من الجمهور بجميع شرائحه. كما أنني أتمنى أن يبقى وطني الغالي سورية عصيا على كل الأعداء والطامعين، وأدعو إلى الله أن يكلله بالنصر، وأن يرفرف علمه الغالي خفاقاً في كل المحافل الدولية.

بطاقة تعريفية

الفنان التشكيلي سمير ظاظا من مواليد دمشق عام ١٩٦٥، درس الفن دراسة خاصة، وأقام العديد من المعارض داخل سورية وخارجها، عمل مديراً لمعهد أحمد ناصيف للفنون التشكيلية والتطبيقية العائد لفرع دمشق لاتحاد شبيبة الثورة، ومشرفاً على دورات الفنون في نقابة المعلمين السورية، شارك في العديد من الأمسيات الشعرية وبالرسم المباشر أمام الجمهور، وله العديد من اللوحات الجدارية في مدارس ومعاهد دمشق. حائز عدة جوائز محلية وعالمية.